العرب
الأحد 2020/10/25
السنة 43 العدد 11861

الفلسفة اليونانية لم تكن يونانية كما يدعي الأوروبيون

فلسفة إسلامية أم فلسفة عربية سؤال يخفي نزعة عرقية

فلسفة إسلامية أم فلسفة عربية؟ سؤال قد يثير استنكارا أو سجالاً أو ربما اعتراضاً. وبما أن السؤال سجالي فإنه لا يؤدي للوهلة الأولى إلى تقديم جواب قاطع، ذلك أنه في ذاته فرضية مفتوحة على مجال صراع التناقضات الدلالية. ومن الممكن في هذا السياق الانطلاق من كتابات الباحث الفرنسي أرنست رينان.

خلدون الشمعة
ناقد سوري مقيم في لندن

يطرح الفرنسي أرنست رينان نموذجاً مرجعياً لوضع صدقية مصطلح "الفلسفة الإسلامية" المؤسس استشراقياً على المحك.

ويقول رينان "تعاليم الإسلام تتنافى مع البحث والنظر الطليق، وإنها تبعاً لهذا لم تأخذ بيد العلم ولم تنهض بالفلسفة ولم تنتج إلا انحلالاً موغلاً واستبداداً ليس له مدى". وتأسيساً على هذا الزعم يبني رينان نظريته المستمدة من النزعة المركزية الإثنية الأوروبية في القرن التاسع عشر. فالفلسفة "إسلامية" لأنها تنتمي لحضارة فقه. وهذه الحضارة عاجزة عن أن تكون أكثر من واسطة لنقل المعرفة، وبهذا المعنى فإنها عاجزة عن الابتكار فلسفيا، فهي مجرد ناقل للحضارة اليونانية.

حضارة الفقه

من المؤسف أن محمد عابد الجابري يعزز هذا الادعاء في كتابه "تكوين العقل العربي" فنجده يقول "إذا جاز لنا أن نسمّي الحضارة الإسلامية بإحدى منتجاتها فإنه سيكون علينا أن نقول عنها إنها حضارة فقه، وذلك بنفس المعنى الذي ينطبق على الحضارة اليونانية حينما نقول عنها إنها حضارة فلسفة، وعلى الحضارة الأوروبية المعاصرة حينما نصفها بأنها حضارة علم وتقنية" (محمد عابد الجابري "تكوين العقل العربي"، دار الطليعة، بيروت، ص 96).

وهذا الادعاء الاستشراقي المنزع، يكرر في فحواه جزم أحمد أمين في "ضحى الإسلام" بأن فلاسفة الحضارة العربية الإسلامية "من أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد كانوا كالمفوضية اليونانية في البلاد الإسلامية".

> نسبة الفلسفة إلى الدين ولّدت مفهوم «الفلسفة الإسلامية» السائد والذي يعني عدم وجود فلسفة في الحضارة العربية الإسلامية

وكذلك جزم عبدالرحمن بدوي في كتابه "التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية" بأن "الفلسفة منافية لطبيعة الروح الإسلامية لذلك لم يقدر لهذه الروح أن تنتج فلسفة، بل ولم تستطع أن تفهم روح الفلسفة اليونانية وأن تنفذ إلى لبابها"، (نقلا عن جورج طرابيشي، "مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام").

وهكذا فإن نسبة الفلسفة إلى الدين تجعل من الممكن صك مفهوم "الفلسفة الإسلامية" السائد والذي يعني عدم وجود فلسفة في الحضارة العربية الإسلامية بالمعنى المتداول، وبالتالي خلوّها من الابتكار، واقتصارها على أن تكون مجرد ناقل رديء للفلسفة اليونانية.

ولا شك عندي أن مفهوم "حضارة الفقه"، وهو كما أشرنا صناعة استشراقية بامتياز، يهدف إلى تعزيز الاستيهامات الرغبية للمركزية الإثنية الأوروبية. ولكنّ هذه "الجغرافية الفلسفية الخيالية" على حد تعبير جورج طرابيشي "اصطدمت عند التصدي لرسم خريطتها الفعلية بعقبة كأداء: فنهر الفلسفة اليونانية الذي انتهى فعليا إلى أن يصب في المجرى الأوروبي الغربي ابتداء من القرن الثاني عشر كان قبل ذلك قد مر بتحويلة شرق أوسطية لا سبيل إلى المماراة فيها: الحضارة العربية الإسلامية التي كانت هي الأخرى مع استطالتها الفارسية حضارة فلسفة في مظهر من مظاهرها على الأقل".

والمقصود بالتحويلة الشرق أوسطية أنها تحويلة عربية اللسان على أقل تقدير. فهي فلسفة عربية من هذا المنظور الذي ينطبق من حيث النسبة، كما سنرى، مع صنيع الإثنية المركزية الأوروبية التي تنسب الفلسفة إلى ما تدعوه بالمعجزة اليونانية. هذه المعجزة بمرجعيتها النرجسية المنزع، تتجاهل أن الفلسفة اليونانية نفسها لم تكن يونانية من حيث الدلالة الإثنية، بقدر ما كانت مكتوبة باليونانية، وهذا التجاهل المسكوت عنه في مصادر الفلسفة المتداولة والذي سمح بالتصدي لمهمة الإنكار.

وهو إنكار يحدده طرابيشي بحق إذ يقول إن من أبرز من تصدى له هو أرنست رينان (1823 – 1892) أحد كبار معماريي المركزية الإثنية الأوروبية وصائغ أسطورة تفوق الجنس الآري ودونية الجنس السامي في القرن التاسع عشر. تنسب الفلسفة إلى ما تدعوه أسطورة تفوق الجنس الآري ودونية الجنس السامي. وتأسيساً على هذه الدعوة القائلة إن "البحث الشجاع والفلسفي عن الحقيقة" هو قسمة العرق الهندي الأوروبي" فإن الجنس السامي لم يؤت "ملكة النظر العقلي". يقول رينان "من العسف أن نطلق اسم فلسفة عربية على فلسفة لا تعدو أن تكون استدانة من اليونان وما كان لها أيّ جذر في شبه الجزيرة العربية. فهذه الفلسفة مكتوبة بالعربية ليس إلا، ثم إنها لم تزدهر إلا في الأجزاء النائية من الإمبراطورية الإسلامية، في إسبانيا والمغرب وسمرقند، وبدلا من أن تكون نتاجاً طبيعيا للروح السامية فقد مثلت بالأحرى رد فعل عبقرية فارس الهند أوروبية على الإسلام، أي على ذلك النتاج الأكثر خلوصاً للروح السامية".

هذه الركيزة العرقية، اللغوية المنزع، تتمثل في عبارة "الحضارة الكلاسيكية"، أي محاولة ربط الأوروبيين المتحدثين باللغات الهندوأوروبية، بـ"معجزة الفلسفة اليونانية" التي يزعم استحالة ردها إلى أصل أبعد منها، فضلاً عن الكلام عن النموذج الآري، مالك امتياز "التفكير بالعقل في العقل".

الإثنية العرقية

هذه الركيزة يسقط دعواها ويفندها مارتن برنال في كتابه "أثينا السوداء" البالغ الأهمية والكاشف عن خطل الزعم بوجود نموذج آري أصلاً. يقول برنال إن "الكلاسيكيين اليونانيين لم يعرفوا شيئاً عن وجود نموذج آري على الرغم من اعتزازهم بأنفسهم وبإنجازاتهم فإنهم لم يروا في مؤسساتهم السياسية وعلمهم وفلسفتهم أو دينهم أيّ أصالة. فقد اقترضوا ذلك كله.. من الشرق عموماً، ومن مصر بخاصة".

والحال أن موقف رينان من اللغة العربية وما يستبطن الموقف من تناقض هو بمثابة "كعب أخيل" الكاشف، إذ يوضع على المحك، عن تهافت دعواه من المنظور المعرفي السائد في القرن العشرين. فقد قرأت الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر، نفسها قراءة نرجسية كحضارة عقل مطلق، حضارة قوة مالئة للفضاء المعرفي. وأما الآخر، النقيض، فهو الإسلام الذي صنعه الاستشراق وعلاقته التبادلية مع اللغة العربية.

وتبعاً لذلك فإن الفلسفة تصير فلسفة إسلامية لأن "من تفلسف فقد تزندق" كما يقول المثل الشعبي. وفضلا عن ذلك فإنها ليست فلسفة عربية، لأن الفلاسفة، حسب هذا الزعم ليسوا عرباً، وإن كتبوا بالعربية. وهكذا يلاحظ طرابيشي بحق أن الدعوة الرينانية القائمة على ركيزة عرقية لغوية تنطوي على تناقض داخلي عميق فهي إذ ترمي الفلسفة العربية بأنها مكتوبة بالعربية ليس إلاّ "تتجاهل أن الفلسفة اليونانية نفسها ما كانت يونانية بالمعنى الإثني للكلمة بقدر ما كانت مكتوبة باليونانية". مضيفا "وإذا كان رينان يلاحظ أنه بين الفلاسفة والعلماء الموصوفين بأنهم عرب ما كان ثمة وجود تقريباً إلا لواحد من أصول عربية هو الكندي، بينما كان سائر الآخرين فرساً ومن وراء النهر، وإسباناً، ومن أهالي بخارى وسمرقند وقرطبة وإشبيلية، فإننا نستطيع أن نلاحظ بدورنا أن أكثر الفلاسفة والعلماء الموصوفين بأنهم يونانيون ما كانوا يونانيين وأن أثينا نفسها لم تنجب سوى فيلسوفين اثنين سقراط وأفلاطون، وأن معظم الفلاسفة الأثينيين كانوا على حد تعبير نيتشه من الأغراب". وإذا كان العرق، كما يفترض رينان مقولة لغوية، فكيف يمكن أن يصنف العشرات من الفلاسفة من أصول سورية ومصرية الذين كتبوا باليونانية في عداد الجنس الآري، ثم يمتنع عن تصنيف العشرات من الفلاسفة من ذوي الأصل الفارسي أو الصفوي في عداد الجنس السامي مع أنهم كتبوا بالعربية؟ ولماذا تستذكر لفلاسفة الإسلام أصولهم الإثنية وتنسى لفلاسفة اليونان الأصول عينها؟".

حياة العرب كانت متنوعة

الحضارة العربية ليست فقط حضارة فقه

توقفت عند هذا الطرح لأنه الأبرز والأعمق الذي يتناول هذا الموضوع، أعني علاقة مفهوم الفلسفة الإسلامية بالفلسفة، وتزمين هذه العلاقة من حيث انتمائها لإثنية الاستشراق العرقية واللغوية في القرن التاسع عشر. وكل ما فيه يشير سلباً أو إيجاباً إلى عمق هذه العلاقة ونتائجها التي يعبر عنها إدوارد سعيد في وقت لاحق، بالتذكير أنه لما كانت المعرفة بالشرق قد تولدت عن القوة فإنها تؤدي إلى خلق النقيض أي إلى خلق الآخر.

يقول "اللغة التي يستخدمها كرومر وبلفور تصوّر الشرقي في صورة شيء يصدر المرء عليه الحكم كما يحدث في المحكمة، أو شيء يؤدّيه المرء كما يحدث في المدرسة أو السجن، أو شيء يرسم له المرء صورة توضيحية كما نرى في دليل مصور في علم الحيوان. ومعنى ذلك أن الشرقي في كل حالة من هذه الحالات تحتويه وتمثله أطر مسيطرة".

الشرقي هنا هو العربي، والعربي وفقاً للسياق الريناني، هو السامي. ولأن الحضارة الإسلامية هي جماع حضارات، أمكن صك مفهوم الفلسفة الإسلامية، ومن ثم الزعم أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة فقه ليس إلا. وما تتضمنه من فلسفة هو من صنع الآريين.. وهذا يتماهى مع فرضية رينان العرقية حول الجنس السامي "المنجب لديانات ولنبوات ومذاهب توحيد ولكنه مجدب فلسفياً" (أرنست رينان نقلا عن جورج طرابيشي). ولا شك عندي أن نصوصاً عربية كثيرة، تعود إلى العصر الوسيط على الأغلب، قرأت بمعزل عن مفهوم الأدب العربي التعددي النزعة والذي يتسم بأنه عابر للأنظمة المعرفية (Interdisciplinarity) وهذا يعني أن الفلسفة كانت ماثلة دائماً في نصوص أدبية، وأحد الأمثلة البارزة على ذلك كتاب "المقابسات" لأبي حيان التوحيدي علم القرن الرابع الهجري، في المقابسة التي تسجل المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي وبين متى بن يونس القنائي الفيلسوف، وهي مقابسة اهتم بها المستشرقون، ومنهم باحث الفلسفة الإنجليزي أوليفر ليمان، إلا أنهم اقتصروا باهتمامهم على رصد المواجهة بين داخل عربي وخارج يوناني، بين اللغة العربية والمنطق اليوناني.

هذه المقابسة التي تسجل مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، هي في حقيقتها المضمرة تشير ضمناً إلى مواجهة بين المنطق العربي والمنطق اليوناني. المنطق العربي المستنبط من اللغة العربية يواجه المنطق اليوناني. وأحد الأمثلة على أهمية هذه المقابسة التي تؤرخ لسجال يذكر بالمنطق اللساني، المقطع التالي:

"قال أبوسعيد متوجهاً إلى متى بن يونس القنائي فيلسوف دار الحكمة المنوط به ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية: حدثني عن المنطق، ما تعني به؟ فإن فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضيٍّ، وعلى طريقة معروفة.

قال متى: أعني به أنه آلة من الآلات يُعرف به صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان فإني أعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح.

فقال له أبوسعيد: أخطأت، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالعقل. هبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن، من لك بمعرفة الموزون، أهو حديد أو ذهب أو شبّة أو رصاص؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقير إلى معرفة جوهر الموزون، وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد، وبقيت عليك وجوه.

إذا كان المنطق وضعه رجلٌ من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكما لهم وعليهم، وقاضيا بينهم، ما شهد له قبلوه، وما أنكره رفضوه؟

قال متى: إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث في الأغراض المعقولة والمعاني المدركة، وتصفح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة، والناس في المعقولات سواء، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم" (أبو حيان التوحيدي: "المقابسات"، شرح وتحقيق حسن السندوبي. ص 55).

ربما يقودنا هذا الذي أقدمه إلى البحث في سيرورة إعادة النظر. وهذا يعني إحداث نقلة معرفية من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين مصطلح "الفلسفة الإسلامية" صنيع القرن التاسع عشر، وقد تمثل بتفعيل ثلاث فعاليات استشراقية عنصرية المنزع:

الأولى هي تقليص السلطة المرجعية للحضارة العربية الإسلامية على سلطة فقهاء. الثانية هي تسمية الحضارة الإسلامية بإحدى منتجاتها، فهي "حضارة فقه".الثالثة هي وصف الحضارة اليونانية بأنها "حضارة فلسفة" لتصير الحضارة الأوروبية "حضارة علم وتقنية".

العبارة المضللة

إذا صح تعريف النقد الثقافي بأنه ليس نقداً أدبياً فقط، بل نقد شامل عابر للأنظمة المعرفية، أمكن القول إن القرن العشرين شهد ويشهد نقلة معرفية من النقد إلى النقض، من الحامل اللغوي إلى الحامل المعرفي. هذه النقلة المعرفية يمكن تقريبها في الأمثلة التالية التي تطرح هنا على سبيل التوضيح وليس التحديد:

أولا: يستهل كتاب عنوانه "دار الحكمة: كيف حوّل العرب الحضارة الغربية" بتحديد المصطلحات. وقد اختار جوناثان ليونز أن يستعمل مصطلح "العلم العربي" ويعني به الفلسفة العربية من بين أشياء أخرى، ليوصل إلى القارئ صورة عن وسط ثقافي معقد يمثل العالم الإسلامي الوسيط بدلاً من استعمال مصطلح "العلم الإسلامي"، هذا على الرغم من إشارته إلى تعددية الأجناس التي صنعته ولم تكن تقتصر على العرب وحدهم.

وتعليل ذلك كما يقول المؤلف أن ما دعاه بـ"العلم العربي" ألف باللغة العربية وتحت حكم قادة عرب. (جوناثان ليونز، دار الحكمة: "كيف حوّل العرب الحضارة الغربية" بلومزبري برنت، نيويورك، برلين، لندن 209).

ينشر كاملا على الموقع بالاتفاق مع مجلة الجديد الثقافية اللندنية